الملتقى الدولي: السيرة النبوية في الكتابات الأدبية عند المستشرقين"

بتاريخ 10-11 مارس 2020:

عنوان المداخلة :

مرجعيات وخلفيات المستشرق وليام منتجمري في كتابة سيرة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)

References and backgrounds of the orientalist William Montgomery in writing the biography of the Prophet Muhammad (may God bless him and grant him peace)

1_د/ نورالدين بوزناشة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية _ قسنطينة

2_د. الزايدي بودرامة جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

ملخص:

اهتم المستشرقون على اختلاف مشاربهم بدراسة التاريخ الإسلامي؛ وخاصة رموزه منها شخصية النبي محمد –عليه الصلاة والسلام–؛ وذلك من خلال العناية بالكتابة عن سيرته؛ ومن هؤلاء المستشرقين منتجمري؛ الذي سعى إلى عرض سيرة المصطفى– صلى الله عليه وسلم– بيد أن هذا العرض لم يتسم بالموضوعية؛ حيث برزت جملة من التأويلات والأدلة التي تطعن في نبوة ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم؛ ومن هنا سعت هذه المداخلة إلى بيان مرجعيات وخلفيات وليام منتجمري في كتابة سيرة النبي محمد؛ قصد كشف مخادعات هذا المستشرق و الكشف عن حقائق طعنه فيها.

Summary :

Orientalists of all walks of life were interested in studying Islamic history. Especially his symbols, including the personality of the Prophet Muhammad - peace and blessings be upon him -؛ This is done by taking care of writing about his life; Among those orientalists is Montamari; Who sought to present the

biography of the Chosen One - may God bless him and grant him peace - but this presentation was not objective. Where a number of interpretations and evidence emerged that challenge the prophethood and message of Muhammad, may God bless him and grant him peace; Hence, this intervention sought to clarify the references and backgrounds of William Montgomery in writing the biography of the Prophet Muhammad. The intention is to expose the deceptions of this orientalist and to reveal the facts he challenged

تمهيد:

تسعى الكتابة التاريخية إلى تحقيق الموضوعية في سرد الأحداث وبيان حقائقها، بيد أنّ واقع هذه الكتابة لا يخرج عن دائرة ذاتية هذا الكاتب الذي يحمل في نفسه غايات أيديولوجية معينة تبرز تجليتها في النص، و كذا المرجعيات والخلفيات الفكرية التي استند إليها.

وفي هذا السياق اهتم المستشرقون بدراسة التاريخ الإسلامي ورصد أهم التحولات فيه، وقد اختلفت مرجعياتهم وتعددت نواياهم وأهدافهم؛ بين ساع إلى تشويه ذلك التاريخ من خلال تحريف النصوص أو إساءة فهمها إذا لم يجدوا مجالا لتحريفها، وبين ساع إلى خدمة العلم والإنسانية[1].

وقد أضحت كتابات المستشرقين في التاريخ الإسلامي والأدب مرجعا لطلاب العلم المتخصصين عجما وعربا؛ فحملوا آرائهم ورددوا أفكارهم فصاروا أسرى العبودية الفكرية لهؤلاء المستغربين، ومن المستشرقين الملمين بالدراسات الإسلامية المستشرق البريطاني: **وليام منتجمري وات** الذي لم يترك شاردة ولا واردة في هذا المجال إلاّ وذكرها وبيّنها[2]، ومن كتاباته التاريخية الأدبية كتابته عن سيرة النبوية وتسجيله لأهم محطات حياة النبي الكريم في أشرف مكانين : مكة والمدينة، غير أنّ تناوله لتلك السيرة العطرة –وإن تجلبب فيها بجلباب الموضوعية– فإنّ باطن

---

[1] _ ينظر: مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم ، دار الوراق، الأردن، دط، دت، ص 7.

[2] _عبد الله محمد الأمين النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية دراسة تاريخية لآراء (وات، بروكلمان، قلهاوزن) مقارنة بالرؤية الإسلامية، المعهد العالمي الإسلامي، ط1، 1997، ص 3.

تلك الكتابة يكشف عن جانب من التشويه في عرض الحقائق وتصوير الأحداث، وذلك الأمر نتلمسه بتحرّي مرجعيات هذه الكتابة التي ترفع الستار وتزيل الحجب عن حقيقة ما يتناوله في سيرة النبي الكريم، ولهذا اخترنا أن يكون محور المداخلة في بحث: **مرجعيات وخلفيات المستشرق وليام منتجمري في كتابة سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.**

قبل الحديث عن المرجعيات نقف أولا عند تحديد مدلول الاستشراق.

1_ مفهومه:

الاستشراق في اللغة مأخوذ من (**شرق**)، **يقال**: " شرقت الشمس تشرق شُروقًا وشَرْقًا: طلعت، واسم الموضع المشرق، ...والتشريق : الأخذ من ناحية المشرق، يقال: شتان بين مشرق ومغرب، وشرّقوا : ذهبوا إلى الشرق أو أتوا إلى الشرق"[1].

والمقصود من الشرق ذلك الحيز المكاني من الكون، والاستشراق : يراد به التوجه نحو الشرق الذي أشرقت منه المعرفة[2].

أما مدلوله الاصطلاحي فهو يعرف بأنه:" تلك الدراسات والمباحث التي قام بها الغربيون لمعرفة الشرق من جميع جوانبه"[3]

أو هو:" اهتمام العلماء الغربيين بالدراسات الإسلامية والعربية ومنهج هؤلاء العلماء ومدارسهم ومقاصدهم"[4].

يتضح من التعريفين؛ أنّ الاستشراق عبارة عن: تلك **الدراسات والاهتمامات الفكرية الغربية** التي تعنى بعلوم الشرق من جميع نواحيها المختلفة .

---

[1]_ ابن منظور، لسان العرب (مادة : ش، ر، ق)، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، دت، م 10، ص 173-174

[2]_ عبد الله محمد الأمين النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية دراسة تاريخية لآراء (وات، بروكلمان، قلهاوزن) مقارنة بالرؤية الإسلامية، ص 16.

[3]_ سامي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي- الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص 23.

[4]_ محمد فاروق النبهان، الاستشراق (تعريفه، مدارسه ، آثاره)، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو، المغرب، 2012، ص12 .

هذا عن مفهوم الاستشراق؛ أمّا نشأته فقد كانت في أحضان الرهبان الغربيين الذين قصدوا الأندلس في أوج نهضتها ومجدها؛ فتثقفوا في مدارسها ومراكزها، وترجوا معاني القرآن والكتب العربية إلى لغاتهم وأخذوا عن المسلمين علومهم ثمّ لما رجعوا إلى بلادهم نشروا ثقافة العرب والمسلمين، وأسسوا معاهد وأقسام في بريطانيا وفرنسا وألمانيا وأمريكا اهتمت بنقل كنوز العرب من المخطوطات النفيسة.

ولكن ظهور الاستشراق لم يكن اعتباطا بل كان مرتبطا بدوافع وأهداف وغايات[1].

2_ دوافع وأهداف الاستشراق:

ثمة جملة من الدوافع نذكر أهمها:

_ دافع ديني يتمثل في : نشأته ضمن كنف الرهبان، يضاف إلى ذلك سعي المستشرقين إلى الطعن في الإسلام ومحاربته عن طريق تشويه محاسنه وتحريف حقائقه، فضلا عن طغيان روح الانتقام عند علماء الغرب بعد الحروب الصليبية والفتوحات الإسلامية العثمانية، وهذا كلّه كان له دور بارز في تنشيط الحركة الاستشراقية، ومن ثمة فإنّ الدافع الديني يعد السبب الرئيس أو الممهد الأساسي لظهور الاستشراق.

_ دافع استعماري، فالمستشرقون مخلب للاستعمار، فقد تغذوا من الحقد الصليبي؛ حيث كانوا يمثلون أحد أدوات السيطرة والهيمنة الاستعمارية من خلال التشكيك في مقوّمات الشعوب العربية من عقيدة وهوية وتراث، فكان من أهم دوافع الاستشراق إضعاف المقاومة الروحية وبث روح الانهزامية في نفوس تلك الشعوب.

_ دافع تجاري: وهو من الدوافع البارزة المؤثرة في حركية الاستشراق؛ إذ عمد الغرب في تعامله مع الشرق إلى الترويج لبضائعه ومنتجاته واستغلال الموارد الطبيعية للشعوب العربية، وبالفعل نجح المستشرقون اقتصاديا بجعلهم العرب أمة مستهلكة لا منتجة أمة تابعة لا متبوعة.

_ دافع علمي(ثقافي): لقد كان الشرق في مركزية علمية ينتج المعرفة، ومن ثمة سعى الغرب إلى اللحاق بالركب الحضاري الشرقي عن طريق تعلم علومه والاطلاع على ثقافته، ولهذا أقبل المستشرقون بدافع ثقافي إلى الاستفادة من تراث وثقافة الشرق في بناء نهضة علمية غربية، وقد تمكنوا من تحقيق ذلك فصاروا هم مركز المعرفة والبقية تابع لهم؛ بمعنى أنّهم غدوا منتجين للمعرفة فيما تستورد البقية هذه المعرفة[1].

---

[1]_ ينظر: مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، ص 17_18.

أما أهداف الاستشراق فهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام[2]:

أ_ هدف علمي مشبوه يتمثل في : التشكيك بصحة رسالة النبي الكريم ومصدرها الإلهي وسماوية القرآن.

1_ إنكار أن يكون الإسلام دينا من عند الله، والتأكيد على أنه ملفق من الديانتين اليهودية والنصرانية.

2_ التشكيك بثوابت هذه الأمة، ومن ذلك الطعن في صحة الحديث وقيمة الفقه الإسلامي وكذا التشكيك في قدرة اللغة العربية على مسايرة التطور العلمي.

ب_ هدف ديني سياسي يتلخص في:

1_ تشكيك المسلمين بنبيهم وقرآنهم وشريعتهم وفقهم، فهذا الهدف يجمع بين الغاية الدينية والاستعمارية.

2_ إضعاف صلة المسلمين بتراثهم عن طريق بث روح الشك فيه؛ قصد النيل من ثوابتهم وخلق انفصام شخصية لديهم بواسطة تشويه صورة المنجز العربي.

3_ الحطّ من قيمة التراث الحضاري الإسلامي بدعوى أنّها حضارة منقولة عن غيرها أو مستنسخة عنها.

4_ إضعاف روح الإخاء بين المسلمين في مختلف الأقطار بنشر التفرقة وإحياء القوميات، وهذا بغرض تزييف الوعي العربي.

ج_ أهداف علمية خالصة: وذلك عن طريق دراسة الإسلام وحضارته بطريقة علمية موضوعية محايدة، وهذا الصنف قليل نادر.

ولتحقيق هذه االمآرب اعتمد المستشرقون على الوسائل الآتية[3]:

_ الانخراط في البعثات التبشيرية المقنعة بقناع الأخوّة الإنسانية .

_ اكتساب عضوية في مجامع اللغة العربية.

_ إصدار الكتب والمجلات المتخصصة.

---

[1]_ المرجع نفسه، من ص 20 إلى ص 24.

[2]_ ينظر: المرجع نفسه، من ص 25 إلى ص 31.

[3]_ عبد الله محمد الأمين النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية دراسة تاريخية لآراء (وات، بروكلمان، قلهاوزن) مقارنة بالرؤية الإسلامية، ص26-27.

_ نشر المقالات في الصحف والمجلات العربية.

_ إصدار الموسوعات بعدّة لغات

_ إلقاء المحاضرات.

_ تطبيع الفكر الاستشراقي أو شرقنة الشرق بواسطة إيجاد كوادر محلية حاملة للفكر الاستشراقي.

لقد نتج عن الاستشراق أثار سلبية وإيجابية نلمح تجليها في مختلف نواحي المجتمع منها[1]:

أ_أثار سلبية:

_ بروز الدعوات العلمانية التي تنادي بفصل الدين عن الدولة، نشر الصوفية المنحرفة عن الكتاب والسنة وهدي الصحابة.

_ انتشار الفرقة بين المسلمين، إدخال العادات والقيم الغربية في أوساط المسلمين، المناداة بدعوى تحرير المرأة من رق الإسلام، تغييب الجهود الفكرية العربية الأصيلة .

ب_ أثار إيجابية:

_ تحقيق المخطوطات القديمة.

_ وضع القواميس والمعاجم للناطقين بغير اللسان العربي، وذلك بهدف تيسير تعلم اللغة العربية لهم.

_ فهرسة الأحاديث.

ومما ساعد على تقوية الاستشراق ظهور المدارس الاستشراقية، التي كان لها دور فعّال في تحقيق تلك النتائج والآثار، ومن أهمها:[2]

_ المدرسة الفرنسية، المدرسة الإنجليزية، المدرسة الألمانية، المدرسة الإسبانية، المدرسة الأمريكية.

ومن المستشرقين المعاصرين بالمدرسة الإنجليزية المستشرق: **وليام منتجمري وات**.

---

[1] _ ينظر: محمد عبدالله الشرقاوي، الاستشراق وتشكيل نظرة الغرب للإسلام، دار البشير، مصر، ط1، 2016، من ص 38 إلى ص 42.

[2] _ محمد فاروق النبهان، الاستشراق (تعريفه، مدارسه ، آثاره)،ص22

3_ التعريف بمنتجمري وات(Montgomery Watt)[1]:

هو مستشرق إنجليزي معاصر ولد عام 1909م، درس في أكاديمية لارخ، وفي كلية: جورج واتسون بإدنبرة، وجامعة أدنبرة، وكلية باليول بأكسفورد، وجامعة جينا بألمانيا.

عمل راعيًا لعدّة كنائس في لندن وفي **أدنبره**، وهو متخصص في الإسلام لدى القس الأنجليكاني في القدس. نال درجة الأستاذية عام 1964م.

تقلد منصب رئيس لقسم الدراسات العربية والإسلامية **بجامعة أدنبره** في الفترة من 1947إلى 1979. وقد قام خلالها بتدريس الإسلام : عقيدة وتاريخًا وحضارة لعديد الطلبة المتخصصين من مسلمين وغيرهم، تركزت اهتماماته الأساسية في مجال السيرة النبوية، وهو معروف لدى طلابه بتعصبه ونزعاته التنصيرية؛ إذ يُعد من أبرز أعلام المستشرقين المعاصرين في بريطانيا وأكثرهم تنوعًا في مجال دراسته الإسلامية، تحظى أعماله بشهرة واسعة بين المشتغلين بالدراسات الإسلامية والعربية.

4 _ مؤلفاته[2]:

له عديد المؤلفات حول الإسلام منها:

الجبر والاختيار في الإسلام 1948، محمد في مكة 1953، محمد في المدينة 1956، محمد نبيا ورجل دولة 1961، عوامل انتشار الإسلام 1961، الوحي الإسلامي في العالم الحديث 1969، الفكرة التكوينية للفكر الإسلامي1973، العظمة التي اسمها الإسلام 1974.

اهتم **منتجمري** كثيرا بكتابة السيرة النبوية، وهذا ما نلحظه في كتابيه: محمد في مكة ومحمد في المدينة، وهذه المداخلة تركز على كتابه الأوّل الذي اتخذناه مدونة لهذا البحث، لكن قبل الخوض في تفاصيل المدونة نقف عند مدلول السيرة.

5_ التعريف بالسيرة النبوية:

جاء في معجم المقاييس في اللغة ما يلي:" السين والياء والراء أصل يدل على مضي وجريان، سار يسير سيرا، وذلك يكون ليلا ونهارا، والسِّيرَةُ: الطريقة في الشيء والسّنّةُ "[3].

والسيرة النبوية **اصطلاحا** يقصد بها تلك " التي تبحث في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ إرهاصات مولده حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى"[1]

---

[1]_ ينظر: مونتجمري واتhttps://creativity507.wordpress.com

[2]_ عبد الله محمد الأمين النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية دراسة تاريخية لآراء (وات، بروكلمان، قلهاوزن) مقارنة بالرؤية الإسلامية، ص 9.

[3]_ أحمد بن فارس، معجم المقاييس في اللغة، دار الفكر، بيروت، لبنان،دط، دت، ص500

نشير إلى أنّ كتابة السيرة هي فن أدبي معروف منذ القديم، ولها أنواعها و خصائصها ومميزاتها الفنية والأسلوبية، ومن هذا المنطلق سنحاول الوقوف على مرجعيات كتابة السيرة النبوية عند منتجمري من خلال تتبع أسلوبه.

6_ أسلوب منتجمري في صياغة مادة الكتاب:

يقصد بالأسلوب الطريقة التي كان الكاتب يسطر بها المعلومات التاريخية، فلكل كاتب أسلوبه، فهناك من يعتمد السرد للوقائع دون مناقشة أو تحليل، ولا استنتاجات، وهناك من يراعي أسلوب الجزم، لتوفر الأدلة اليقينية عنده، وهناك من يبني كلامه بناء احتماليا، فلا يكاد يجزم بأي شيء، نظرا لقلة الأدلة التي ترتقي بنظرته للحوادث إلى مرتبة اليقينيات، كما يدخل في الأسلوب نوع الجمل والتراكيب التي يختارها الكاتب في العرض، فمن الكتاب من يحاول أن يشاركه المتلقي في عملية الاستنتاج، وعملية ملء الفراغات، فيسعى دائما إلى طرح الأسئلة التي تحرك في القارئ حب التفتيش، والاستفسار، ومنهم من يراعي في كتابته أن تكون كتابة فنية أدبية مشوقة، تجعل القارئ وكأنه بصدد قراءة قصة أو رواية تاريخية.

ويمتاز أسلوب وليام منتجمري وات بأسلوب حجاجي ركز فيه على الإكثار من المناقشة، وعدم الجزم، واستعمال العبارات الاحتمالية المشككة، والإكثار من الأسئلة المحفزة لذهنية القارئ، وغيرها، وهذا سنحاول التدليل عليه في النقاط الآتية:

1- عدم الجزم فيما يعرضه من معلومات، ولا فيما تعرضه النصوص المؤصلة للمعلومات، ولا حتى فيما يصل إليه من معلومات مستقاة من نصوص غيره، إلا إذا كانت المعلومة مؤكدة لا اختلاف فيها، ولا تحمل ما يوجب الاختلاف حولها، وفي المقابل تجده يكثر من عبارات: من المحتمل، ويظن أن ذلك، ربما، قد يكون، ... حين يتعلق بمسائل لم يصل إليها ذهنه فيها إلى اليقين، وإن بدت عند غيره (مسلمين أم غربيين) يقينية، فمثلا حين حديثه عن الذكريات المتعلقة بالأرض عند العربي نجده يقول: "ومن المؤكد أن التراث العربي في فترة ما قبل الإسلام قد تضمن الكثير من ذكريات الأرض الخصبة في الجنوب"[2]، ويعتقد أن تأثير الجماعات اليهودية والمسيحية كان لها الكثير من الأفكار التي أثرت بها على العرب، ولذلك قال مؤكدا: "نجد أن الجماعات اليهودية والمسيحية التي أثرت على العرب كان لها بلا شك الكثير من الأفكار الغريبة"[3]، وقد يستعمل عبارة نفي التشكك؛ كما في حديثه عن بداية الوحي، قال: "ليس هناك أي سبب وجيه يجعلنا نتشكك في النقطة الأساسية في الفقرة أ، وهي أن بداية النبوة كانت الرؤية الصادقة، وهذه الرؤى تختلف تمام عن الأحلام ... ويؤكد ما ورد في أ ما نعرفه من

---

[1]_ منير محمد غضبان، فقه السيرة النبوية ، جامعة أم القرى، السعودية، ط2، 1992، ص 13 .

[2]- وليم منتجمري وات، محمد في مكة، نقله إلى العربية: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ط1، 1994، ص51

[3]- المصدر نفسه، ص84

سورة النجم"[1]، والأمر نفسه حين حديثه عن ذهاب النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى غار حراء، يقول: "ليس هناك ما يدعو إلى الشك أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان يذهب إلى غار حراء ... سواء أكان مع عائلته أو بدونها"[2]وحين يتحدث عن المؤسسين الأوائل للقبائل العربية يتناولها بصيغة التشكيك، فيقول: "ربما كان قصي هو الذي ميز بين قريش البطاح، وقريش الظواهر"[3]، ويقول عن حلف الفضول: "قد يعتبر حلف الفضول تطويرا لحلف المطيبين، وليس حلفا ضد الظلم كما ينظر إليه كيتاني"[4]، معبرا بـ(قد) التي تدل ههنا على الشك والاحتمال، وذلك أنه لا يوجد ما يمنع هذا الافتراض، ويرى أن تأثير غير اليهود والمسيحيين على بعض العرب محتمل ولا يمكن نكرانه، يقول: "لا نستطيع أن نستبعد تماما احتمال التأثر بالجماعات الموحدة غير اليهود والمسيحيين، ولكنه كان في أحسن الأحوال ضئيلا، فربما كانت هناك مجتمعات صغيرة تؤمن بتوحيد مؤسس على فلسفة إغريقية مثل الصابئة"[5]، وحين يكون الخبر مخالفا للعادة أو للعقل يكثر من إيراد عبارات التشكيك، فيقول مثلا عن عمر خديجة حين تزوجها النبي (صلى الله عليه وسلم): "ربما كان عمر خديجة مبالغا فيه، فقد ذكرت المصادر أسماء سبعة ولدتهم لمحمد"[6]. لكن يبدو أن الغالب في استعماله هو التشكيك الذي يدل على أنه مازال لم يقتنع بما تورده الروايات، أو لا تتفق مع ما يجعل قناعته ترتقي إلى درجة اليقين.

2- تحريك ذهنية القارئ بإيراد الأسئلة والإكثار منها، وهي طريقة حجاجية بامتياز، وخصوصا حين يتعلق الأمر بإقناعه أن ما يعرض يحتاج إلى نظر، يحتاج أن لا يمررها الذهن مرور الكرام، لأن الأمر متعلق بدين قد أنشئت حوله صراعات منذ بدإ ظهوره، واستمرت مع المسيحيين واليهود إلى يومنا هذا، من ذلك مثلا إثارة أسئلة حول ما تضمنه القرآن من معتقدات كانت العرب تعرفها، وكذا عما تضمنه من أفكار أو معتقدات أصلها يهودي أو مسيحي، يقول: "ماذا ذكر القرآن أو تضمن عن معتقدات العرب في زمان محمد (صلى الله عليه وسلم)، سواء منها التقدمية المثقفة أو المتحفظة؟ ثم بعد ذلك يمكننا أن نسأل إلى أي مدى نستطيع أن نتتبع آثار التأثير اليهودي المسيحي؟"[7]، ويكثر من الأسئلة حين تعلق الأمر بلقاء جبريل عليه السلام للنبي (صلى الله عليه وسلم)، وسلم)، فيتساءل بداءة عن الصيغ المختلفة التي ورد بها الحديث، يقول: "هل هذه مجرد روايات أربع لحادثة واحدة، ولكن اختلفت الألفاظ بطريقة أو أخرى؟"[8]، ثم يتساءل عن مضمونها قائلا: "إذا كانت الفقرة ب تشير

---

[1]- المصدر نفسه، ص104

[2]- المصدر نفسه، ص108

[3]- وليم منتجمري وات، محمد في مكة ، ص54

[4]- المصدر نفسه، ص55

[5]- المصدر نفسه، ص85

[6]- المصدر نفسه، ص98

[7]- المصدر نفسه، ص82

[8]- المصدر نفسه، ص109

إلى النداء الأصلي، فما العلاقة بينها وبين الرؤى؟ ... هل يمكن تكرار مثل هذه التجربة؟"[1]، وحين يشتبه عليه أمر قراءة النبي (صلى الله عليه وسلم) سأل: "لمن يتلو محمد (صلى الله عليه وسلم)، وفي أية مناسبة؟"[2]، وحين عرض لفحوى الرسالة التي جاء بها النبي (صلى الله عليه وسلم) سأل نفسه: ما الرسالة الأصلية للقرآن؟ وما أول ما نزل منه؟[3]، وحين يعرض لحالة العرب والمشاكل التي كانوا يعانونها حين نزول القرآن يسأل نفسه: "تشخيص الأوضاع في مكة كما قدمها لنا القرآن الكريم تشير إلى أن الاضطراب، والمشاكل القائمة وقت نزوله كانت في الأساس دينية، وقد افترضنا فيما ذكرناه آنفا أن ظهور الإسلام كان على نحو ما مرتبطا بالتغير من حياة البداوة إلى الاقتصاد التجاري mercantile economy أهناك تعارض بين المنظورين؟ أم يمكن التوفيق بينهما؟"[4]، إلى غير ذلك من الأسئلة التي تحمل مقاصد متعددة كالتشكيك، أو الاستغراب، أو الرد، .... ولكنها في مجملها تريد إقناع المخاطب بضرورة الإجابة عن مثل هذه الأسئلة، لأن الإجابة عنها تقود إلى فهم دقيق للمسائل التي يناقشها الكاتب، كما أن لها دورا آخر يمكن أن يستشفه المدقق في أسلوب هذا الكاتب، هذا الدور هو **خلق طريقة حوارية ممتعة**، تعين القارئ على الاستمرارية في القراءة دون أن يحس بملل أو كلل، ذلك أن السرد المباشر قد يكون سببا في مله وسأمه.

3- الاعتماد على الطريقة أو المنهج التوسمي الاستنتاجي، وذلك بأن يعرض بعض الروايات ثم يبدأ في ذكر ما يمكن توسمه منها من صور أو خيالات، وأغلبها ينبني على ظنون لا أساس لها من الصحة، والملاحظ أنه يلجأ إلى اعتماد هذا المنهج لملء الفراغات التي لا تصرح بها بعض الروايات، أو حين لا يمكن في رأيه قبول رواية أو تفسير من التفسيرات، من ذلك تفسيره للوحي، ولما نزل على النبي (صلى الله عليه وسلم)، فقد قال: "لاشك أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان مدركا منذ شبابه لبعض المشاكل الاجتماعية والدينية في مكة، ولا شك أن وضعه كيتيم جعله أكثر إدراكا للانحرافات التي في المجتمع، ومن الناحية الدينية يمكننا أن نفترض أنه كان يدين بالتوحيد المبهم الذي كان عليه أغلب المتنورين من أهل مكة، ولكن لابد أنه كان بالإضافة إلى ذلك يتطلع إلى نوع من الإصلاح في مكة، وكان كل شيء يوحي بأن هذا الإصلاح يجب أن يكون دينيا، وفي هذا الإطار الفكري كان من الواضح أن يتعمد محمد (صلى الله عليه وسلم) السعي إلى الوحدة ليلجأ إلى الأمور الإلهية ويؤدي بعض العبادة، ربما طلبا للتكفير عن الخطايا، وربما سبقت بعض الممارسات الدينية هذه الخلوة، ولكننا لا نعرف عنها شيئا"[5]، هذه هي الصورة التي خلقها لتفسير تحنث النبي (صلى الله عليه وسلم)، مما يقرب تفسير أن يكون مصلحا، ولكن شتان بين قبول فكرة أنه مصلح متفرد، وبين القول بأنه نبي مرسل من الله.

---

[1]- المصدر نفسه ، ص111

[2]- المصدر نفسه، ص112

[3]- وليم منتجمري، محمد في مكة ، ص132

[4]- المصدر نفسه، ص162

[5]- المصدر نفسه، ص109

6-1-المتلقي في كتاب (محمد في مكة) وأبعاده:

لاشكّ أن الكاتب حين يؤلف أو يكتب، فإنه يقصد جهة معينة من القراء يستهدفهم بكتابته، وبمراعاتهم يقدم أو يؤخر، وقد يذكر بعض الأمور أو يحذفها، وهذا ما استوعبه منتجمري جيدا، فبين في بداية كتابه أن مؤلفه هذا يمس أو يتوجه إلى ثلاث طوائف من القراء أو المتلقين، هم[1]: 1- المتلقّي المسلم 2- المتلقّي المسيحي 3- المتلقّي المؤرّخ.

ويدعي منذ البداية أنه ينشد الموضوعية والحيادية، وخصوصا عند عرضه للمسائل التي كانت موضع نقاش بين المسلمين والمسيحيين، قبولا أو ردّا، وتبعا لهذه الموضوعيّة، فقد جعل لنفسه هدفا عامّا، وهو التّأريخ بكلّ حياديّة لشخصيّة عاشت في زمن له خصوصياته التي يجب مراعاتها إذا ما أريد تحقيق هذه الموضوعيّة؛ يقول: "الذين يهمهم الموضوع كدارسين للتاريخ، والذين يتناولونه لأنهم مسلمون أو مسحيون، وعلى أية حال فهذا الكتاب موجّه أوّلا وبصفة رئيسية للمهتمين بالتاريخ، ولقد حاولت المحافظة على الحياد في المسائل اللاهوتية (الدينية) التي يدور حولها النقاش بين المسيحية والإسلام، فمثلا، لتجنب الجزم بما إذا كان القرآن كلام الله أم لا، فقد تحاشيت استخدام التعبير (يقول الله) أو (يقول محمد)، واستخدمت التعبير (يقول القرآن)، ومع ذلك فإنني لا أتبنى المنظور المادي بحجة التزامي بالنزاهة التاريخية، فأنا أكتب كمؤمن بالتوحيد"[2].

ويمكن إيجاز الأهداف التي وضعها وات لكل صنف في الخطاطة الآتية:

أهداف وات بحسب المتلقي

المسيحيون	المسلمون	المؤرخون
يقدم لهم المادة التاريخية التي تعينهم على تكوين موقف صحيح تجاه هذا النبي، وتجاه دينه الإسلام، وتجاه المسلمين	يعينهم على التثبت من صحة دعوى النبي الذي يتبعونه، وخصوصا في المسائل العقدية التي يعرضها بفضلها سيجاب عن أسئلة لم تثر من قبل.	الحاجة إلى صياغة جديدة لحياة النبي محمد، بعد توفر العوامل المادية التي يقوم عليها التاريخ والتي

[1]- ينظر: وليم منتجمري، محمد في مكة ، ص40

[2]- المصدر نفسه، ص40.

والملاحظ أن وليم وات لا يعني بالمؤرخ أي مؤرخ، بل المؤرخ الغربي الذي خاض الكتابة في هذا الموضوع، أو بعبارة أخرى المستشرق الغربي، أمثال: سير وليام موير، وكيتاني، وهنري لامانس، وتيودور نولدكه، وغيرهم من المستشرقين الذين كانت لهم دراسات تناولت حياة محمّد (صلى الله عليه وسلم).

وسنعمل على جلاء الأفكار التي عرضها وات فيما يتعلّق بكل متلقّ، ونبدأ بـ:

1- **المتلقي المسلم**: يفهم القارئ لكتاب وليم وات أنه يدعو المسلمين إلى إعادة النظر في كثير من أمور هذا الدين، خصوصا وقد توفرت معطيات جديدة، فإما أن يفندوها، وإما أن يأخذوا بها، ومن ثمة إعادة تصحيح ما يجب تصحيحه، ويقصد وات بالمعطيات: المعطيات المادية، والمالية الاقتصادية، والسياسية، ... وغيرها، وهو ما اعتمده في قبول بعض الأخبار أو ردّها، وسنحاول إبراز المسائل التي دعا فيها المسلمين أفرادا وباحثين إلى أن ينتبهوا إليها، ويمعنوا النظر فيها جيدا، منها:

أ- ينبّه المسلمين إلى إعادة النّظر في مسألة تعظيم أباء النّبي (صلى الله عليه وسلم)، ودورهم في سياسة مكة، فهو يرى مع كثير من الدارسين الغربيين أن العباسيين "مؤسسو الدولة العباسية ادعوا الانتساب إلى هاشم، بينما الأمويون مؤسسو الدولة الأموية يدعون الانتساب إلى أخيه عبد شمس، وقد تناول المؤرخون الذين عاشوا زمن الدولة العباسية تاريخ الأمويين بطريقة خالية من التعاطف، فليس مستغربا إن هم أسبغوا على هاشم وأبنائه، وأحفاده أهمية كبيرة، ووضعوهم موضع الصدارة بطريقة قد لا تمثل حقيقة ما لهم من أهمية وصدارة"[1]، فمرجعه في التّشكيك هو ما آل إليه الأمويون والعباسيون من ممارسات سياسية حتى يكسبوا التأييد لحكمهم، ولذلك قال: "فالروايات المتعلقة بذلك قد تم عرضها بلا شك بروح التعاطف مع هاشم وبنيه وأحفاده، لكن لا أساس للافتراض بوجود قدر كبير من الأكاذيب والتزييفات الخطيرة"[2]، لكنه لم ينتبه إلى أن المسلمين قد اعتمدوا على السند في قبول الأخبار أو ردها، وهو الأمر الذي رفض أن يعتمده، ولذلك نجده يقرر هذه الحقيقة الموجودة بالفعل، لكنه لم يستوعب أنه لا يلزم وجودها، صحتها، وحقيقتها.

ب- دعا المسلمين إلى إعادة النظر في تفسير سورة النجم، وخصوصا قوله تعالى: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ (النجم/ من الآية 13 إلى 17)، فقد رفض أن يكون المرئي جبريل عليه السلام، مستدلا على هذا بأن الملك جبريل لم يذكر في القرآن إلا في المدينة[3]، وبأنّ تفسيرها بغير الله يجعل التركيب اللفظي غير منسجم، كما استدل عليها بروايات رواها جابر رضي الله عنه، وهو قول النبي (صلى الله عليه وسلم): "فنوديت فنظرت بين

---

[1]- وليم منتجمري، محمد في مكة، ص88

[2]- المصدر نفسه، ص88

[3]- ينظر: المصدر نفسه، ص105

يدي وخلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فلم أر شيئا، ثم نظرت إلى السماء، فإذا هو على العرش"(صحيح البخاري)، وينسب هذا التفسير إلى النبي (صلى الله عليه وسلم)، ولكنه فجأة يعترض على هذا التفسير الذي نسبه إليه بما ورد في سورة الأنعام: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ (الانعام/ 103) مدعيا أن ما ذهب إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) ليس تفسيرا نهائيا، مع العلم أن هذا هو الذي فهمه من الحديث، لكنه لما أغفل طرقه وقع في مثل هذا التوجيه والنبي (صلى الله عليه وسلم) منه براء[1]، وحتى لا يوقع في التناقض – في تصوره – فإنه يعطي احتمالا آخر، وهو أنّ ما رآه "كان علامة أو رمزا لمجد الله وجلاله، كما توحي الآية 11 ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ والتي ربما أضيفت فيما بعد، بتطور آخر في هذه النظرية، بمعنى أنه: بينما أدركت العينان العلامة أو الرمز، أدرك القلب الشيء المرموز"[2].

ت– يدعو المسلمين إلى قبول تفسير تحنث النبي (صلى الله عليه وسلم) في غار حراء قبل نزول الوحي بأنه "ربما كان وسيلة للهروب من حرارة مكة في موسم متعب لمن كانوا لا يستطيعون الذهاب إلى الطائف"[3]، ولا يتوقف عند هذا التفسير بل يذهب إلى أبعد منه حين ينبه إلى أن العزلة، والابتعاد عن الناس من التأثيرات اليهودية المسيحية[4].

ث– ينبه المسلمين إلى مراجعة مسألة أمية النبي (صلى الله عليه وسلم)، وقول النبي لجبريل حين فاجأه وهو في الغار: (ما أقرأ) و(ما أنا بقارئ) لا تعني – عند وات– أنه لم يكن يعرف الكتابة والقراءة كما يفهم المسلمون، بل يعني ماذا تريد مني أن أقرأ، ولذلك يتهم توجيه المحدثين بأنهم يريدون من توجيههم لـ (ما أقرأ) بعدم المقدرة على القراءة، لأنه لم يكن متعلما، إثبات أن القرآن معجز لهذا السبب، يقول: "يكاد يكون من المؤكد أن أهل الحديث المتأخرين قد تجنبوا المعنى الطبيعي لهذه الكلمات ليعزوا الاعتقاد بأن محمدا عليه الصلاة والسلام، لم يكن يستطيع الكتابة، وهذا الاعتقاد جزء من إثبات الطبيعة المعجزة للقرآن"[5].

ج– يقدم تفسيرا تاريخيا لخوف النبي (صلى الله عليه وسلم) حين تكشف له جبريل، وهو أن خوفه مرجعه "الخوف من الاقتراب من عالم الغيب divine فله جذور عميقة في الوعي لدى الشعوب السامية، وهناك شواهد على ذلك في التوراة"[6]، وينبه المسلمين إلى عدم الاعتماد فقط على السياق النصي الذي وردت فيه كلمتا (دثروني وزملوني) اللتان تدلان على خوفه (صلى الله عليه وسلم)[7]، وهو بتفسيره هذا يقوض ما جبلت عليه

---

[1]– ينظر: وليم منتجمري، محمد في مكة، ص106

[2]– المصدر نفسه، ص107

[3]– المصدر نفسه، ص108

[4]– المصدر نفسه، ص108

[5]– المصدر نفسه ، ص112

[6]– المصدر نفسه، ص117

[7]– المصدر نفسه، ص117

الطبيعة البشرية التي تخاف من كل ما لم تألفه، وكل أمر عظيم، كما يشير إلى أن الديانة الإسلامية ما هي إلا امتداد لأفكار سبقت، وهذا لا يمكن التسليم به بحال من الأحوال.

ح- على عادة الغربيين لا يؤمنون إلا بالمحسوس، ولذلك صعب عليه قبول أن يخاطب جبريل عليه السلام محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأخذ يلفت نظر المسلمين إلى أنه وحي "من النوع الكلامي التخييلي imaginative locution لكنه بلا شك مرتبط برؤية جبريل، وقد تكون الرؤية عقلية أو تخييلية، أما الإشارة إلى نزول جبريل على هيئة رجل فذلك وحي من النوع التخييلي"[1].

وهناك مسائل كثيرة عرض لها المؤلف بالتشكيك، أو الدعوة إلى إعادة النظر، وهي تعبر عن المسائل التي يحتاج المسلمون إلى إبرازها، ومناقشتها، وتأييدها أو تفنيدها، وهذا يستلزم متابعة لكل ما يكتب، ومناقشته، لأن هذا جزء من تبليغ هذا الدين.

2- **المتلقي المسيحي (الغربي)**: المسائل التي ناقشها الكاتب متوجها بها إلى المتلقي المسيحي، أو بعبارة أدق الغربي مهما كان توجهه، هي مسائل شاعت بينهم يعترضون بها على نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم)، أو هي مسائل تعبر عن موقف سلبي تجاه بعض القضايا حدثت في زمنه، ويدعو وليم وات الغربيين إلى ضرورة إعادة النظر في مناقشة الإسلام، لأن ما كونوه من أفكار أغلبها غير صحيح، ذلك أنه مبني على تصور غير صحيح، يقول وليم وات: "إن اتجاه علماء الغرب كان غالبا غير صحيح لأنه يتضمن - أو يبدو أنه يتضمن – إنكارا للمذاهب الدينية الإسلامية، وحتى من وجهة نظر أفضل علماء الغرب، فإن الدراسات الغربية للقرآن كانت غالبا غير صحيحة، فقد ركزت على الجانب الأدبي، ونسي أصحابها أن الجانب الأدبي ليس إلا جانبا واحدا من جوانب الصورة، وأن الأعمال الأدبية فيها أيضا العمل الخلاق للشاعر، أو الكاتب المسرحي أو القصصي، ولم يثبت وجود الجانب الأدبي أبدا غياب الأصالة الخلاقة"[2]. وتبعا لهذا لا ينفك ينبه هذا المتلقي إلى ضرورة مراجعة المسائل التي عرضت عرضا مشوها، من هذه المسائل:

أ- ينبه الغربيين إلى ضرورة معاملة شخصية النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بعده مصلحا كبيرا، تحمّل كثيرا في سبيل معتقداته، كما يدعو إلى النظر نظرة سامية إلى الرجال الذين ءامنوا برسالته، والذين اعتبروه قائدا لهم، وكذا النظر نظرة تعظيم إلى ما تمخضت عنه جهوده من إنجازات[3]، ثم عرج على عرض الصورة السيئة التي تصور بها الغرب هذا الرجل العظيم فقال: "لقد تصوّر الغرب محمدا دجالا أثار من القضايا أكثر مما قدم من الحلول، وأكثر من هذا فلا أحد من عظماء التاريخ لاقى من الغبن والظلم في الغرب مثلما لاقى محمد (صلى الله عليه وسلم)،

---

[1]- وليم منتجمري، محمد في مكة ، ص128

[2]_ المصدر نفسه، ص 81

[3]- ينظر: المصدر نفسه، ص120- 121

فالكتاب الغربيون يكادون يكونون منكفئين على الاعتقاد في كل أمر يشين محمدا (صلى الله عليه وسلم)، فإذا ظهر لهم تفسير كريه لفعل يبدو معقولا ومنطقيا مالوا إلى تصديقه"[1]. ثم يقدم للغربيين المنهجية الموضوعية التي يجب اعتمادها للحكم على النبي (صلى الله عليه وسلم) ودينه، وتابعيه، وهي[2]:

1- فهم محمد (صلى الله عليه وسلم) ككلّ متكامل
2- تصحيح الأخطاء الموروثة عن الماضي، فلابدّ أن من الإيمان بإخلاصه وصدقه إلا إذا ثبت العكس
3- تقديم الاستقامة على المعقولية.

ب- يفند وات ما اشتهر عند الغربيين من أن الوحي الذي كان يتلقاه محمد (صلى الله عليه وسلم) هلوسة، وينعت متبنيه بأبشع الأوصاف؛ ذلك أن الهلوسة لا تقود إلى بناء شيء محكم، ولا إلى تصورات ذات معقولية، يقول: "أما التأكيد على أن رؤى محمد (صلى الله عليه وسلم) والوحي الكلامي الذي يتلقاه مجرد هلوسة - كما يحلو لبعض الكتاب أحيانا أن يقولوا – فإن مثل هذه الأقوال تجعل الأحكام الدينية (اللاهوتية) مفرغة تماما من الوعي، لذا فهي أقوال تتسم بالجهل المخجل الذي يدعو للشفقة؛ جهل بالعلم وسلامة العقل"[3]، ويلفت نظر هؤلاء الدارسين إلى أن العقل مصدر من مصادر العلم، وأنه من المفيد جدا عقد مقارنة بين ما يقوله النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وبين ما اشتهر عند القديسين المسيحيين؛ يقول: "العقل أعلى مرتبة من الحس، وهذه القضية ذات أهمية كبيرة لطلبة علم النفس الديني، وسيكون بلا شك من المفيد عقد مقارنة بين جوانب ظاهرة الوحي عند محمد (صلى الله عليه وسلم)، والظواهر المشابهة عند القديسين المسيحيين والصوفية"[4].

وتبعا لهذا أيضا يرد على من زعم أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) مصاب بالصرع، ذلك أن "الأعراض المصاحبة للوحي عند محمد (صلى الله عليه وسلم) ليست هي أعراض الصرع، فالصرع يؤدي إلى انهيار القوة البدنية والعقلية، بينما كان محمد (صلى الله عليه وسلم) في كامل قواه العقلية والبدنية، وفي كامل ملكاته، ولكن بفرض أن هذا الزعم صحيح، فإن البراهين عليه زائفة تماما، وقائمة على مجرد الجهل والتخبط، فمثل هذه الظواهر المصاحبة للوحي لا تصلح برهانا نعتمد عليه في رفض الوحي أو قبوله"[5].

ت- كما ينبّه إلى أنّ فهم تعاليم الدّين الإسلاميّ، وعقائده يجب أن لا تفهم وفقا للتّصوّر الشّائع عند الغرب، لأنّها قد تكون تصوّرات قاصرة، ولذلك دعا إلى "نسيان الفكرة الشائعة في الغرب التي تعتبر جوهرها شعورا ذاتيا subjectiveربما يوصف بمعنى حضور الله، أما العرب فهم أكثر ارتباطا بالجوانب الموضوعية objective للعبادة،

---

[1]- وليم منتجمري، محمد في مكة ، ص121
[2]- ينظر: المصدر نفسه، ص121
[3]- المصدر نفسه ، ص128
[4]- المصدر نفسه، ص128
[5]- المصدر نفسه، ص129

خاصة معناها ومغزاها، ... إنني لا أقصد القول بأن الإسلام ليس دينا، فالإسلام دين بكل تأكيد، لكن قد تكون أفكار الغرب عن الدين هي التي يعتريها القصور"[1]. كما يدعوهم إلى عدم النظر إليه بما يحدث عادة، أي بما ألف من حوادث، ذلك أن تقديم تفسير مقنع لا تكفي فيه الرؤية المنطقية، والاستدلال العقلي، "فمن وجهة نظر العلمانيين الأوربيين (الذين لا يضعون العوامل الدينية أو الغيبية في اعتبارهم عند تحليل مثل هذه الموضوعات) ربما أمكن القول إن محمد (صلى الله عليه وسلم) كان يسمع من مصادر معتادة أفكارا بعينها، فإنه كان يتحقق أنها حل للمشكلات التي يواجهها، ومن التجربة والخطإ استطاع بالتدريج أن يبني نظاما، لكن حتى من خلال هذه النظرة العلمانية لا يمكن شرح مسار الحوادث بطريقة مقنعة"[2]، خصوصا وأن ما يورده هؤلاء الغربيون "لا هو مبني على الملاحظة والتجربة حتى نقول إنه تفكير علمي، ولا هو تفكير صارم أو دقيق بما فيه الكفاية بحيث نقول إنه ينطبق على المحتوى (الكيرجما) القرآني، إن المؤكد أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) لم يدخل في مسألة التحليل المجرد للوضع كما نفعل نحن هنا"[3].

ث- وفي موضع آخر يرفض ما يذهب إليه الباحثون الغربيّون من أنّ "الأفكار القرآنية ... متشابهة إلى حد كبير مع أفكار اليهودية والمسيحية، ألا يعني هذا أن القرآن الكريم غير أصيل، وأنه لا يمثل عاملا خلاقا؟"[4]، ويؤكد أنّ هذا القول ضعيف، ولا يمكن قبوله، بسبب أنّ "الذين خاطبهم القرآن بما فيهم محمد (صلى الله عليه وسلم) نفسه، كان بعضهم متآلفا بالفعل مع هذه الأفكار عن الله سبحانه ويوم الحساب، لكن ربما لم تكن على درجة كافية من الوضوح، لقد بدأ القرآن هنا بالتعامل مع النّاس كما هم، أي بالأفكار التي كانت لديهم بالفعل، فلم يكن أيّ يهودي أو مسيحي يتكلم العربية بقادر على إحراز النّجاح الذي حقّقه محمّد (صلى الله عليه وسلم)، لو وقف بين أهل مكة وراح يكرر الأفكار اليهودية والمسيحية، لقد كان سيبدو غريبا بينهم، أما القرآن الكريم فقد خاطبهم عن الأفكار اليهودية المسيحية على نسق التفكير العربي، وبفكر كان بالفعل حاضرا في عقول المتنورين منهم"[5].

هذه أبرز التوجيهات التي راعى فيها وات المتلقي الغربي، وهي مسائل تدعو إلى احترام الدين الإسلامي، ودراسته من الداخل، وعدم التسرع في إصدار الأحكام غير المؤسسة.

3- **المتلقي المؤرخ**: هدف المؤرخ هو عرض الأحداث الواقعة في زمن محدد، مع ذكر الأسباب والمحركات، وذكر النتائج المرتبطة بها، لكن هل يمكن أن ينفك هذا عن خلفية يتبناها؟ إن المتلقيين السابقين (المسلمين، والغربيين)

---

[1]- وليم منتجمري، محمد في مكة ، ص145

[2]- المصدر نفسه، ص164

[3]- المصدر نفسه ، ص164

[4]- المصدر نفسه، ص168

[5]- المصدر نفسه، ص168

يمكن أن يكونا هما اللذان يكتبان هذه الحوادث، وقد يقع كل واحد منهما تحت سطوة أمور كثيرة، منها السياسة، والاقتصاد والمال وغيرها، وقد تنبه إلى هذا وليم وات تنبّها جيّدا، فألزم نفسه بقراءة الأحداث والتحقق منها مراعيا التأثير الممارس على كتابتها، ولذلك نبه مثلا إلى أن تناول "المؤرخين الذين عاشوا زمن الدولة العباسية، تاريخ الأمويين بطريقة خالية من التعاطف، فليس مستغربا إن هم أسبغوا على هاشم وأبنائه وأحفاده أهمية كبيرة ووضعوهم موضع الصّدارة بطريقة قد لا تمثل حقيقة ما لهم من أهمية وصدارة"[1].

والمتفحص لهذا الكتاب يجده يقدّم نصائح ضمنيّة تعين المؤرّخين في النّظر إلى ما ينقل إليهم من كتابات تاريخية، منها:

أ- إدراك الدارس الحديث لاتجاهات المؤرخين القدامى ومصادرهم، يعين إلى حد ما على تجاوز التحريف المحتمل، ويقدم البيانات بصورة محايدة[2].

ب- يجب أن يكون التمييز بين الأفعال الخارجية والدوافع المعلنة حاضرا في الذهن دائما، لأن الفاعل وأصدقاءه سيدعون أفضل الدوافع وأكثرها مدعاة للمديح، بينما يؤكدون على أن دوافع أعدائهم مشينة، ولكن قد يكون الخلاف قليلا حول بعض الأحداث، وفي حدود ضيقة، مثل تاريخ حدث بالنسبة لحدث آخر[3] وعليه فهو مطالب بإسقاط الدوافع المعلنة في مصادره، وعليه أن يستنتج هو ما يراه من الدوافع، معتمدا على النمط العام الذي يحكم مثل تلك التصرفات عادة، ولكي يوضّح وات رؤيته يقدم لنا المثال الآتي: "الفاعل ولنسمه (أ) قام بالفعل، ولنسم هذا الفعل (س)، ولا يمكن أن يكون دافعه (ل) أو (م) مادام هذان الدافعان (ل و م) لا يتفقان مع طبيعته، لهذا لابد أن يكون دافعه هو (ن)، لأن هذا يتفق مع طبيعة أفعاله المتفقة مع طبيعة شخصه[4].

ت- التشكيك في الأخبار التي تدل على تحيز واضح، أو التي تدل على تناقض خفي، ومن ثمة فالتي تكون مقبولة هي الأخبار التي لا يوجد فيها تحيز أو تناقض، مثال ذلك: كتاب ابن سعد حول الأنساب، فلا يمكن الاستنتاج أنه ألفها تعصبا أو ما شابه، والذي يدل على هذا – في رأي الكاتب– هو الجهد الكبير الذي تكبده في سبيل وضعه[5].

ث- التعويل على المتن، وعدم الاهتمام الكبير بالسند، وذلك لكثرة الأخبار الضعيفة،والتي لا يمكن التعويل عليها كثيرا[6].

---

[1]- وليم منتجمري، محمد في مكة ، ص88

[2]- المصدر نفسه ، ص45

[3]- المصدر نفسه، ص45

[4]- المصدر نفسه، ص 46

[5]- المصدر نفسه، ص46

[6]- المصدر نفسه، ص48

ج- المقارنة بين النص المدروس، والنصوص القديمة المشابهة له لمعرفة وجه الاتفاق، وبيان وجه الاختلاف، والوقوف على النتائج المترتبة عن هذا.

ح- مراعاة الواقع الاقتصادي والمالي في التحليل والمناقشة، وبناء النتائج

خ- توثيق النصوص من كتبها، وهذا ما عليه المنهجية التي اعتمدها وات في عرض المادة، حيث كثيرا ما يرجع إلى كتب السيرة العربية، ككتاب السيرة النبوية لابن إسحاق، وابن هشام، وطبقات ابن سعد، وكذا كتابات الغربيين ونسبة القول لصاحبه.

6-2-الحجاج المغالط (الاستنتاجات غير المؤسسة):

يعرفه حسان الباهي بقوله:" تغليط الخصم باستخدام مختلف الحيل الممكنة التي من شأنها صرفه عن الهدف الحقيقي"[1]، فهذا الحجاج قائم على اعتماد أساليب المغالطة والإيهام في عرض الحجج.

وقد دخل الكاتب بوعي أو دون وعي في مغالطات، وتجده مع ذلك ينافح عنها، وقد يدعي صحتها وصوابها، وهذا ما حدث صراحة لوليام وات، فهو وإن ادّعى أنه سيكون موضوعيا وحياديا، فإنّه سجّل مجموعة من الاستنتاجات لو دقّق فيها النظر قليلا لأبى عقله قبولها، بله عرضها وسردها، وإيرادها على أنها مما يجب إيراده، وهذا يجعلنا نصنف هذه الاستنتاجات وهذه الأفكار ضمن ما يعرف في النظرية الحجاجية الحديثة بالحجاج المغالط، حتى ولو لم يقصد الكاتب مغالطة المتلقي فيما يعرضه عليه من أفكار، ذلك أن تبنيه لرؤية مادية بحتة، وانطلاقه منها لتفسير أمر غيبي مغالطة لا ترتضى، وعدم مراعاته للخصوصيّات التكوينيّة للشّعوب، وخلفياتها الثّقافية المحركة تعد من المغالطات التي يجب النأي عنها، وخصوصا حين تفتقد الآثار الصحيحة التي تدلنا على ما نذهب إليه، والتأسيس للتاريخ انطلاقا من ظنون وتوسمات يعد كذلك من المغالطات التي لا يجب أن يقع فيها الباحث النزيه الموضوعي، ومن أمثلة ما وقع فيه وليام وات من استنتاجات غير مؤسسة نورد:

أ- مسألة العقاب الذي حلّ بأبرهة الحبشي وجيشه حين أتى مكة يريد هدمها، اكتفى وات بإيراد أنه قد دُمر بالطاعون، مستعملا عبارة (فيما يظهر)[2]التشكيكية، ولم يفتح المجال لنفسه ليناقش أمر كيفية إفنائهم، ولا لم لم يتأثر أهل مكة، وذلك لأنها أمر سيرفع من قيمة هذه المنطقة، ذلك أن إقرار هذا الأمور سيقود إلى الاعتراف أنها محفوظة بحفظ الله، وهو أمر غيبي لا يؤمن به وات،ولا يريد أن يقنع به نفسه، فهو مثل كثير من الغربيين الذين يؤمنون بالمحسوس، وبما لا يتجاوز العقل التّجريبي عندهم، وفي المقابل فتح المجال لنفسه للقول عن جدّ النبي (صلى الله عليه وسلم) بأنّه "من المحتمل أنّ عبد المطلب كان يحاول الاستعانة بالأحباش ضدّ خصومه من قريش مثل بني

---

[1] _ حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي،أفريقيا الشرق، المغرب، 2004، ص 170.

[2] - وليم منتجمري، محمد في مكة، ص67

شمس، ونوفل، ومخزوم"[1]، والقول عن القصة التفاوض التي حدثت بين عبد المطلب وأبرهة بأن "بعض ملامح هذه القصة ...هي بلا شك لتعظيم بني هاشم، إلا أنه ربما كانت حادثة المفاوضة صحيحة، ولكن يجب أن تفسر على أنها حركة جماعية من مجموعة صغيرة من قريش"[2].

ب- أرجع عظمة الإسلام إلى أمرين: 1- الأخلاق التي فرضها العيش في البيئة الصّحراء، 2- انصهار هذه الأخلاق مع مفاهيم التّوحيد المقتبسة من اليهوديّة والمسيحيّة؛ قال: "أدى الصراع الضاري من أجل البقاء إلى عملية انتقاء ليس على أساس الصفات البدنية فحسب بل على أساس الصفات الأخلاقية، إذ يتطلب النجاح في حياة الصحراء درجة عالية من التكافل، وهذا مرتبط بدوره بدرجة عالية من احترام الشخصية وتقدير القيامة الإنسانية، ففي أتون الصحراء يحترق خبث الاتجاهات والأفعال الدنيا تاركا ذهب الأخلاق العالية ودستور العلاقات الإنسانية الراقية وتقاليدها، والمستوى العالي من التفوق الإنساني خالصا نقيا، وإن من مباحث هذا الكتاب بيان أن عظمة الإسلام تعود إلى درجة كبيرة إلى انصهار هذا العنصر مع بعض مفاهيم التوحيد في اليهودية والمسيحية"[3]، وهو بهذا العرض الشائق يدس السم في العسل، فدين الإسلام – حسب ما يفهم من كلامه – ليس دينا سماويا، وإنما هو دين ملفق، استغل فيه النبي (صلى الله عليه وسلم) كرم الأخلاق ونبلها التي كان يتصف بها العرب في الجزيرة العربية نتيجة ظروف جغرافية يستدعي العيش فيها مراعاة جانب الأخلاق، مضيفا إليها عقائد أخذها من اليهودية والمسيحية، ويؤكد على مسألة الأخذ هذه في مواضع متعددة من كتابه، حيث نجده يقول – مثلا- في مسألة لفظ الجلالة: "من المحتمل أن الوثنيين في مكة قبل زمان محمد صلى لله عليه وسلم كانوا يستعملون اسم الله للدلالة على الإله الرئيسي للكعبة، كما كان الإله المعبود في الطائف يسمى اللات، أي: الإلهة، فإذا كانت كلمة الله قد استخدمها اليهود والمسيحيون بنفس المعنى، فإن فرصة اختلاط الأمور تكون كبيرة، ...فقد كان أمام العرب فرص كثيرة للاتصال بالمسيحيين واليهود، فالإمبراطورية البيزنطية التي كان العرب معجبين بها إلى درجة كبيرة بقوتها وحضارتها العالية كانت مسيحية، وكذلك كانت الحبشة ..."[4]، ولا يتوقف عند هذه المغالطات، بل يذهب إلى أبعد من هذا حين يقرر أنه "قد حدثت بعض التعديلات في الأفكار اليهودية المسيحية حتى يمكن استيعابها في المنظور العربي"[5]، وذلك لأنه قد يجابه بأن ما أتى به النبي (صلى الله عليه وسلم) يختلف في كثير من الأمور عن المسيحية واليهودية، حتى في مسائل الاعتقاد، فأغلب المسيحيين يؤمنون بالتثليث، ويرون أن عيسى عليه السلام ابن الله، واليهود يرون أن عزيرا بن الله، وهذه الشركيات لا توجد في الإسلام، فالمسلمون يؤمنون بإله واحد أحد فرد صمد لا شريك له، ولذلك لجأ منتجمري إلى القول: (قد

---

[1]- وليم منتجمري، محمد في مكة ، ص66

[2]- المصدر نفسه، ص66

[3]- المصدر نفسه ، ص77

[4]- المصدر نفسه، ص83

[5]- المصدر نفسه، ص85

حدثت بعض التعديلات في الأفكار اليهودية والمسيحية)، وأعظم بها من مغالطة ومن فرية، وأعظم بها تحريفا وتزويرا. وحين يجابه بصحة ودقة ما أورده القرآن، وأنه يستحيل أن يكون مقتبسا من غيره، يجيب: "ربما أمكن القول إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) عندما كان يسمع من مصادر معتادة أفكارا بعينها، فإنه كان يتحقّق أنها حلّ للمشكلات التي يواجهها، ومن خلال التجربة والخطإ استطاع بالتدريج أن يبني نظاما"[1].

ت- سعى إلى إثبات صحة قصة الغرانيق على الرغم من معارضتها الصريحة لجوهر الإسلام ولبه، وعلى الرغم من أن الله عز وجل قد عصم نبيه من أن يقع في بعض صغائر الذنوب فما بالك بكبائرها، فما بالك بالشرك، يقول: "إنه حدث ذات مرة أن قرأ محمد (صلى الله عليه وسلم) هذه الآيات الشيطانية علنا باعتبارها جزءا من القرآن، ونظن أن هذه القصة لم يخترعها مسلمون متأخرون زمنا، ولا نظن أن غير المسلمين قد أقحموها في التاريخ الإسلامي"[2]، وحتى يوهمنا أكثر بصحتها يورد أنه "من المؤكد أن محمد (صلى الله عليه وسلم) قد أعلن بعد ذلك أن هذه الآيات الشيطانية ليست من القرآن الكريم، وأن آيات أخرى قد حلت محلها تحمل مضمونا مختلفا تماما"[3]، بل ويسرح به الخيال إلى أبعد من هذا حين يقرر أن "حذف الآيات الشيطانية من سورة النجم يؤدي إلى رفع شأن الكعبة على حساب الأوثان الأخرى، ولابد أن نتذكر في هذا السياق أنه مع ارتفاع شأن الإسلام تم تدمير كل هذه الأوثان وتحطيمها"[4]، فقد صار مسلما عنده أنها أنزلت، وأنها تليت، لكن حتى يبقى شأن الكعبة مرفوعا فقد حذفت، ووات حين يصر على هذه القصة فإنما يريد أن يثبت فكرة الارتقاء التدريجي للأفكار التي جاء بها النبي (صلى الله عليه وسلم)، ولذلك يقرر أن هذه الآيات التي يصفها بالشيطانية "لا يمكن أن تكون دلالة بأية حال من الأحوال على التراجع عن التوحيد، ولكنها - ببساطة -قد تكون مجرد تعبير عن وجهات نظر طالما اعتقدها محمد (صلى الله عليه وسلم)، من هنا فإن دراسة المضامين السياسية لهذه الآيات الشيطانية تعد أمرا شائقا، أفعل محمد ذلك رغبة منه في الحصول على مؤيدين له في المدينة والطائف، وفي القبائل المحيطة بها؟ هل حاول إحداث توازن بين هؤلاء وزعماء قريش الذين يناوئونه، بأن يجمع حوله أكبر عدد من المؤيدين؟ ثم في أقل القليل، اليس ذكره لهذه الأوثان دليلا على أن رؤيته قد اتسعت، أي أن نظره بدأ يتجه لأبعد من دعوة قريش؟"[5].

قريش؟"[5].

خاتمة: هناك مسائل عديدة مارس فيها وليام وات حجاجا سفسطائيا سعى منه إلى حمل المخاطب على الاقتناع بفحوى الأفكار التي يعرضها، ومرجع هذا بالأساس هو تقديمه للجوانب المادية على الجوانب الغيبية،

---

[1]- وليم منتجمري، محمد في مكة ، ص164

[2]- المصدر نفسه، ص206

[3]- المصدر نفسه، ص208

[4]- المصدر نفسه، ص112

[5]- المصدر نفسه، ص216

وعدم تقديره وفهمه لرسالة الإسلام العقدية، وربما كذلك لتشبعه واقتناعه بكثير من الأفكار المحرفة التي تلقفها من دارسين غربيين مثله.

قائمة المراجع:

1_ أحمد بن فارس، معجم المقاييس في اللغة، دار الفكر، بيروت، لبنان.

2_سامي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي– الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2002.

3___ حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي،أفريقيا الشرق، المغرب، 2004.

4_عبد الله محمد الأمين النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية دراسة تاريخية لآراء (وات، بروكلمان، قلهاوزن) مقارنة بالرؤية الإسلامية، المعهد العالمي الإسلامي، ط1، 1997.

5_محمد عبدالله الشرقاوي، الاستشراق وتشكيل نظرة الغرب للإسلام، دار البشير، مصر، ط1، 2016

6_ مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم ، دار الوراق، الأردن.

7_ محمد فاروق النبهان، الاستشراق (تعريفه، مدارسه ، آثاره)، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو، المغرب، 2012.

8 _ ابن منظور، لسان العرب (مادة : ش، ر، ق)، دار صادر، بيروت، لبنان.

9_ منير محمد غضبان، فقه السيرة النبوية ، جامعة أم القرى، السعودية، ط2، 1992.

10– وليم منتجمري وات، محمد في مكة، نقله إلى العربية: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ط1، 1994.